الانكسار النفسي عند الشعراء العرب في عصرما قبل الإسلام

أ.م.د. عارف عبدالله محمود الأحبابي
معهد الفنون الجميلة / بلد

تاريخ استلام البحث :٥ / ٥ / ٢٠١٥ تاريخ نشر البحث :٦ / ١٢ / ٢٠١٥

الملخص

تناول البحث مسألة الإحساس بالانكسار النفسي جراء العوامل الحربية والاقتصادية ، فضلاً عوامل الهرم والشيخوخة وما يترتب على ذلك من تبعات اجتماعية تزيد في انكساره وخذلانه ، ومحاولة الشعراء تجاوز ذلك الانكسار بالتغني بخوض أحداث تلك الحروب وعوامل الصمود فيها التي تخفف من وطأة الشعور بالحزن والضعف ، أو محاولة تخفيف أثر الجانب الاقتصادي المتردي وانعكاساته الاجتماعية عليه من خلال مقاومة عوامله وأسبابه بالطرق الإقناعية والقهرية ، أو محاولة تخفيف أثر الشيخوخة على نفسه من خلال ما يبث من الشكوى التي تزيل توتره واضطرابه النفسي .

البحث:

خلق الإنسان العربي بطبعه جاداً طموحاً أبياً رافضاً عزيزاً كريماً ، وهي سمات عزيزة عليه ، قريبة من نفسه ، وهي بالنسبة له خطوط حمراء لايمكن تجاوزها، فهو حريص عليها ، يستقتل من أجلها ، ولا يرتضي لذاته التخاذل والإنكسار أمام الصعاب التي تعترضه؛ لذا نجده متحدياً إياها، صامداً بوجهها ؛ لأنَّ القبول بهذ الأمور يعني الركون والرضوخ والوقوع في مهاوي الردى والانكسار النفسي ، الذي يصعب عليه استجباره مما يقوده الى التخلف وعدم الالتحاق بالركب أينما كان اتجاهه .

فالعربي يهوى المعالي ، ويفخر بها ؛ لأنه وجد فيها إرضاءً للذات وسداً منيعاً وجداراً عازلاً لكل متطاول شامت أراد النيل منه ولاسيما الذي يتربص به ثغرات الضعف ، ويبحث عن الهنات والهفوات ، وهي وسائل ضغط هادفة الى جرح كبريائه ، وإضعاف شخصه ، والتقليل من شأنه ؛ لذا نجده في بعض حالات الانكسار يكبت ما يعانيه ؛ ويخفي

مواجعه لكي لا يعرض نفسه لشماتة الأعداء بطرق ذكية من أجل المحافظة على توازنه الاجتماعي والنفسي معآ لكي يظفر بنتيجة إيجابية هي إصلاح الخلل النفسي الذي انتابه من جهة ، واسترجاع عافية شخصيته من جهة اخرى لأنه معتد بها غيور عليها ، وعلى الرّغم من ذلك فقد بدت عليه حالات الانكسار رغماً عنه ؛لأن الانكسار النفسيّ هو : ((اضطراب التوافق المصحوب بالمزاج المكتئب الذي يتميزبالبكاء واليأس والقنوط))[١] ، وهوكذلك حالة نفسية أو معنوية تتسم بالشعور بعدم القيمة أو بانعدامها ، وفي الحالات العميقة من الاكتئاب أو الكآبة قد يشعرالمنكسر بفقدان الهيأة وعدم القدرةعلى النوم [٢] ؛ لأن الانكسار النفسي ((يتضمن صعوبة في التفكير وضعفاً في القوى والحركة والحيوية وهبوطاً في النشاط الوظيفي))[٣] اعتماداً على طبيعة المثير ، ومما ساعده على ذلك التوازن الفترة الانكسارية النسبية وهي الفترة التي ((هي تعقب المطلقة ، ولايؤثر في الخلية العصبية خلالها إلّا مثير أقوى من المثير السّوي))[٤] .

إذن الانكسار النفسي : هو أزمة نفسية أو أزمات يمر بها الإنسان بحالة من الضعف والوهن والخيبة والإحباط المقترن باليأس، والرضوخ والإستسلام ، وفقدان الثقة بالنفس وخصوصاً إذا تكالبت عليه الظروف ، فتتحجم إرادته وتستلب قدراته وإمكانياته فتحول بينه وبين تحقيق غايته المنشودة ، بسبب تلك الظروف التي احاطت به فكبلته ، وجعلته أسير الذات تحت ظل ديمومة الصراع النفسي بقلق جارح في غربة لاتطاق ، وعلى الرغم من ذلك لن يستسلم لأمره ، ولا ينصاع لواقعه من دون مقاومة ؛ لذا يبحث عن وسائل وسبل تنقذه من مأزقه ، ومن أزمته النفسية الحادة حين يكون الأمر بخلاف ما يتمنى ؛ لذا يتوشح بسلاح الصبر لنفسية قد انكسرت ، وغلب عليها طابع الحزن بعد أن كانت مغرمة بحب العلو والشموخ والعزة ، والهيبة ، والكرامة والترفع عن الذل ، وللانكسار النفسي بواعث كثيرة يأتي الفشل وخيبة الأمل في مقدمتها فضلا عن عدم تحقيق الطموح لسوء تقدير الموقف في كل جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية والحربية، وعدم التحسب للمستقبل بنظرة بعيدة ، وبقرار صائب تسفر نتائجه عن نهاية غير محمودة تكون ثمارها الكآبة والقلق النفسي .

إنّ حياة العرب قبل الإسلام مليئة بالأحداث والمواقف تبعاً للظروف القاسية التي ألمت بهم من حروب وغارات مرفوضة في ذواتهم مفروضة عليهم أسفرت نتائجها عن الويلات والدمار، وزرعت في نفوسهم الضغينة التي صورها الشعراء بأحسن الصور ، ونقلوا دقائق أحداثها بأدق التفاصيل ، وهم يتغنون بنشوة النصر ، ويفتخرون بذروة المجد والسؤدد

لكونه معلماً من معالم الرجولة ، ومشهداً من مشاهد البطولة الحقة ، وبخلاف ذلك يعني الهزيمة والانكسار النفسي ، لذا زرع في نفوسهم حب المواجهة ، وعدم التفكير بالهزيمة الا بالظروف التي تخرج عن إرادتهم ، لذا فهم أصحاب القرار الذي يحتم عليهم تقدير الموقف فضلاً عن أمور أخرى تتعلق بخططهم الحربية المدروسة والجادة لكسب المعركة وضمان النصر. وتلك الافكار التي يحملها الفرسان الغيارى تحمل في ثناياها كلّ دواعي الصمود والتصدي للخصم بنفوس مؤمنة أبت الفرار حتى تعلو بيارق النصر خفاقة .

فمن المعتاد عند نشوب الحرب بين طرفين – ومهما كانت اسبابها – تهيئة الحشود البشرية بالعدّة والعدد استعداداً للمواجهة بكل ما يمتلكون من قدرات حربية ، وإمكانيات قتالية ، ولكن على الرغم من تلك التهيئة أثبتت التجارب أنّ الفرسان هم الأقوى والأقدر في كسب المعركة لصالحهم ؛ لخضوعهم لفكرة الإمتثال للأمرة وضرورة الطاعة للآمر ؛ لأنه سيد الموقف وصاحب القرار فبغيابه يكون الإنسكار , وبوجوده يكون النصر .

إنَّ الصلة بين الآمر والمأمور صلة تفاعل ، والعلاقة بينهما علاقة تأثر وتأثير ، فهو يتأثر بكل ما يملى عليه من شروط الأمرة، كما انه يؤثر في تلك الشروط بالتعامل مع المتطلبات بسلسلة من الآستجابات الفعلية التي يعمل بها على اقامة نمط الحياة المتناسب مع تطلعات الفارس وطموحاته ؛لذا يؤكد الشعراء الفرسان على ضرورة الالتزام بالأوامر , والآخذ من اصحاب المشورة والخبرة الحربية لكي لا يقعوا في موقف يقلل من شأنهم , ويثلم كبرياءهم , ويهز مكانتهم.

وهذا ما كابده دريد بن الصمة وعاش معاناته في صراع مرّ ، وقد انشطر هذا الصراع الى صراعات عدّة انصبت في بوتقة حزن مع ذاته ؛ لذا فهوقد أدلي بحقائق الأمور بعد انجلاء الموقف عن هزيمة قومه ، وانكسار جمعهم أمام الخصم في يوم اللوى مبرئاً نفسه , مدافعاً عنها بكل وسائل الدفاع المشروعة والاعذار المقبولة علماً أنه لم يكن هو السبب في هذا التقهقر والإنهيار النفسي السريع المتوقع , وذلك لعدم استجابة قومه لأوامره ، ورفضهم تطبيق خططه واسفر هذا الموقف عن نتائج غيرمرضية بعكس ما يريد، وبخلاف ما يرغب فانتفض ثائراً على من لا يمتثل لأوامره ولا يأخذ بنصائحه أو يسترشد برشده. هكذا ابدى الشاعر سرد قصصه بأدق التفاصيل ، دعوة منه لأظهار الحقائق ليبرئ ذمته لقومه من جهة ، وليسلي نفسه ويعزيها من جهة اخرى ، وعلى الرغم من ذلك فإن ما جرى على قومه ((لم يقلل من شأن دوره القيادي فلم يكن مسؤولآ عن العواقب التي حلّت بأخيه وبقومه ،

بعد ان رفضوا الأنصياع لأمره ، وقد بصرهم بحقيقة موقفهم تجاه عدوهم بل أن ما اصاب قومه في ذلك اليوم لم يكن الا حصيلة لتمردهم على قيادته ونبذهم رأيه))[٥] ولكن الدم والرحم محرك لآثارة الذات المضطربة ، وهي تلم شتات الحزن جبراً للخواطر ، فالشاعر يبوح بحزنه على من انفردوا برأيهم ، وركبوا رؤوسهم ، ولم يستأنسوا بمن هم اهل للقيادة ، وإبداء الرأي لمعرفتهم بفنون الحرب ، إذ يقول : [٦]

ولـــــما رأيتُ الخيلَ قبلاً كأنّها جــرادٌ يبارى وجهَة الــريحِ مغتدي
أمرتهــم أمــري بمنعرج اللوى فـــلم يستبينوا النصح إلّا ضحى الغدِ
فلما عصونـــــي كنت منهم وقدأرى غوايتهم وأننـــــي غير مهتـــدي
وهل أنا الا من غزيـــــة إن غوت غويتُ وإن تـــــرشد غزيـــــة أرشد

وتبقى الحسرة المكبوتة تعصر الذات المثقلة بألم المصاب مما يفضي بصاحبها الى التصدي لعواذله زارعاً في نفوسهم روح الثقة ، داعياً إياهم الى التريث وعدم الثرثرة في مثل هذا الموضوع ، مستعيناً بالمصدر النائب عن فعل الأمر (مهلاً) كخطوة بدائية لكف ألسنة الناس لعله يشذب بعضاً من همومه وأحزانه التي قد تراكمت وتوالت عليه من مصائب جمة منها فقدانه لأخ عزيز كريم ، حين قال: (إن الرزء في مثل خالد ولا رزء فيما اهلك المرء عن يد) ، وقضية أخرى هي أكبر مما هو عليه اندحار قومه وانكسارهم النفسي على اثر أخطاء لم تكن لديه فيها فعل أو بصمات ، إذ يقول: [٧]

أعاذل مهلاً بعض لومك وأقصدي وإن كان علم الغيب عندك فــارشدي
أعاذلتي كــل امرئ وابن أمـــــه مـــــتاع كزاد الراكب المـــــتزود
أعاذل إن الــرزء في مثل خالـــــد ولا رزء فيــما اهلك المرء عن يـــد

وحين تتضارب الآراء وتتكالب الأحزان فمن الطبيعي أن تتداخل الأمور وتتشابك مع بعضها ايضاً ، فتفضي بنتائج سلبية لا تحمد عقباها ، وهذا ما حصل لدريد بن الصمة ، وهو يطوي باكورة حزنه بنهاية مأساوية بطلاق زوجه (أم معبد) الساعية لكبح جماح عبرته لرجل يستحق الجزع والبكاء أخيه (خالد) ولا يكتفي بهذا القدر بل تمادت عليه بصفات تطعن فيه ، وتقلل من شأنه ، أسفرت نتائجها القصاص كردود فعل لعدم مشاركتها إياه مصيبته ؛ لذا نراه

يعالج الجراح بجبر الخواطر تارة لنفس قد تحطمت نفسياً فانكسرت ، وتارة أخرى يعطي العذر لنفسه حين اتخذ القرار ، في قوله: [٨]

أرث جــديد الحبل مــن أم معبد بعاقبة واخــلفت كلّ موعـــــــــــد
وبانـــــت ولم أحمد اليك نوالها ولـــــم ترج فينا ردّة اليوم أو غـــــد

ولم يكن بالهين على فارس قد شهدت له سوح الوغى أن ينكسر أو يرّد ولا يؤخذ بآرائه وطروحاته إبتداءً من أسرته حتى دخوله ميدان الحرب على الرغم مما يمتلكه من خبرة ودراية ، ومعرفة بفنون الحرب فضلاً عما يجده في نفسه من أهلية لإبداء الرأي والمشورة ، وكونه صاحب القرار الذي لا يفند ، فهو خبير الحرب المجرب ، ورافع السيف الذي لا يثلم ، والقلب الذكي الذي لا ينكسر ، ويظهر ضمير الأنا، وهو يعتلي سلم الفخر بالذات بشكل مغاير ومعاند للذات الآخر لأنه على صواب ؛ لذا نجده يكرر أداة النداء (الهمزة) ومفردة العذل كصرخة تحمل معاني الغضب الثائر بوجه من يحاول كسر نفسيته من دون حق, وهذا مالمسناه في قصيدته الدالية (أعاذل – أعاذلتي– أعاذل) وهي تحمل رموز التذكير بتولية الأمور ، واسنادها له لا لغيره ، وهو يعالج الذات المنكسرة بأعذار حقيقية خالية من رتوش الكذب ، وهو واثق من نفسه ، صادق في قوله.

كما أن للعرب مظاهر اجتماعية متعددة تمسكوا بها في حياتهم , وهي اكثر ما تبدو في جوانبها الايجابية والسلبية انعكاساً صادقاً وحقيقياً للبيئة التي عاشوا فيها وتربوا عليها ، فتأثروا بها حتى أصبحوا أوفياء صبورين، شجعاناً حافظين للعهد ، أباة [٩] غيورين على أنفسهم بكبريائهم ، صائنين لعرضهم وشرفهم ، حامين لقبائلهم واقوامهم ، معتزين بكرامتهم وعزتهم ، مفتخرين بأفعالهم وقيمهم ، وأن صفاتهم هذه تمثل فضاءً ((كان جزءاً مهماً من الصورة المرصودة لها قائماً على تركيزها منبع البطولة والفضائل والزمن الاول الذي حوى أصول الفعال الجليلة ونماذجها المطلقة التي صارت مضرب الامثال)) [١٠] ، لأنها جمعت بين الاقتدار والسخاء في أكثر قصائدهم التي رسموا فيها ملامح النموذج الأمثل [١١] الذي جاء بفضل تعايش عقله مع مجريات الأمور , ومؤثراتها التفاعلية داخل المحيط الاجتماعي من الدوافع الرئيسة التي جعلته يتطبع بتلك الطبائع المحيطة التي تعزز توازنه في أغلب الأحيان ؛ لأن وجوده يعتمد على استقرار الذات وثباتها وليس بتقلبها واضطرابها [١٢] ولا يمكن أنْ تستقر نفسية الشاعر الجاهلي أو تثبت في موضعها ببطولة حربية أو ذكر لقيم فاضلة مالم

تكن معززة بقول شعري ، بوصفه عنصر ثابت في تحديد ملامح الصورة [١٣] وتقريب معناها الى السامع والمتلقي لتعطي أبعاد صورة الفارس المغوار وصولات قومه المشهودة ، وهم يخوضون غمار الحرب الضروس بلا هوادة.

وتبرز مثل هذه الصورة المغرمة بالفخر بنفسه وقبيلته في أبيات لبشر بن أبي خازم التي قالها على أثر التصدي لقبيلتي كعب وكلاب ، في قوله:[١٤]

صبوراً عـند مختلف العـــوالي اذا ماآلـــــــــحرب أبرزت الكـــعابا
وطــال تشـــاجر الابطال فيــها وابـــدت نــاجذاً منـــــــها ونابا
فعزّ علـــيّ أن عجل المنــايا ولمـــــا ألق كعـــــــباً او كلابا
ولما الـــق خيلاً من نــمير تضـــــبّ لثاتها ترجو النـــــــهابا
ولمــا تلتبس خيل بخـــيل فيطعنـــــوا ويضطربــوا آضــطرابــا
فيا للناس ان قـــناة قــومي أبـــــت بثقافها إلا آنـــــقلابا
هم جدعوا الأنوف فـــأوعبوها وهم تـــــركوا بني ســـــعد يبابا

لقد فخر الشاعر بصمود قومه حين برزت البيض الحسان ، كاشفات غير مخبآت ، فيكون موقف المقاتل الغيور يفوق كل طاقة وقدرة ، حفاظاً على الشرف والعرض فبذلك يكون صبره غيرة ، وثباته عزيمة ، لكي لاتنكسر النفوس وتتحطم على أثر اندحار او هزيمة لإهمال أوعدم ثبات في سوح الوغى ؛ لذا يُسهب في الوصف والتصوير لأجواء الحرب وشدة شهوة الخيل للقاء ، كناية عن اندفاع الفرسان ،وهم يتمتعون بمعنوية خارقة منقطعة النظير حين تشتبك الخيول وتتضارب السيوف ، ثم يستأنف الحديث مستعرضاً بطولاته ، وبطولات قومه ، وفي صدره حسرة وغضاضة مقرنة بالخوف من قدوم المنية قبل اللقاء بكعب او كلاب. ويأتي حرف التنبيه في صدر البيت السادس(ياللناس) لينبه الناس ويطلعهم على حقيقة قد تكون غائبة عن أذهانهم او يغفلونها ، ألا وهي قوة قومه وشدةّ بأسهم واقتدارهم على مغالبة الخطوب ، متحدثاً عن لسانهم أنهم إذا انقلبوا ينقلبون كما تنقلب القناة الصلبة ، فهم لا ينكسرون نفسياً من أمر يصيبهم ولا يضعفون ، مبرهناً حقيقة ما يقول من أنّهم هم الذين استأصلوا بالجدع أنوف بني سعد بن زيد من أحياء تميم حلفاء بني عامر ، وكانت على اثر ردود فعل لما اصاب بني عامر من أنكسار يوم النسار من بني أسد وأحلافها.

احتوت نفوس الشعراء حب الأمل لما يستروحوا من نسيمه ، ويهتدوا بضيائه ، ويكون لهم نعم الغراء في ليالي تسودها الخيبة والإخفاق ، فيه حلاوة العمر، وجنة الصبر , وسلاح في مجابهة عدوان الدهر [١٥] ولكن تبقى النفوس الأبية تعيش غربة الذات التي خيم عليها طابع الحزن ولا سيما إذا كانت الرياح تجري على غير مجاريها الحقيقية ، فكيف بمن عاش معاناة الغدر ، واكتوى بنيرانه ، فالغدر أمر مرفوض ومستهجن ؛ لأنه لا يليق بصفة العربي الذي عرف بوفائه وصدقه ، وثبات موقفه ، فالوفاء ركن من أركان إدامة الصلة ، ورمز من رموز الثبات على الموقف ؛ لذا أفاض الشعراء القدامى في الحديث عن الغدر وما يتركه من أثر نفسي لما فيه من كدر للخواطر وكسر لعاطفة الذات المتوشحة بسلاح الحزن في ظل غربة لا تطاق.

ولقد رسم لنا عمرو بن معد يكرب الصورة المناسبة عن لواعج النفس وانكسارها ، وهي ردود فعل ناجمة عن اضطرابات في تصرف تظهر على أثر حادث من حوادث الحياة كان قد أثار انفعالاً بالغاً [١٦] وتوتراً مشدوداً على من سولت لهم نفوسهم الغدر وعلى وجه الخصوص قبيلة (بنو أعلى) وكدأبها قبيلة (أنعم) من مراد ، وكأنه يريد أن يقول لقد أصبح الغدر شيمتهم ، في لواء رفع لهم في مجمع ، فلم تكن صفاتهم الا التكبر ، ولم يكن كلامهم الا ثرثرة فارغة ، لذا يقومون بعملية تمويه للحقيقة ، وخداع للنفوس وهم يحاولون لا شعورياً إنكار عيوبهم الحقيقية واخفائها عن انفسهم درءاً للخطر ، وخلاصاً من آلام نفوسهم [١٧] ولكن ستبدي لنا الأيام حقيقة أمرهم على ماكانوا عليه من كسل وخمول ، وعدم استهواء دخول الحرب ، وهي علامة من علامات الضعف والوهن والانكسار النفسي ، إذ يقول : [١٨]

ألا غدرت بنو أعلى قديمـــــــــاً وأنعم, انها ودق الـــــــمزاد
ومــن يشرب بمـــــاء العــبل يغدر على مـــــــاكان من حمى وراد
وكنتم أعبداً أولاد غـــــــــــيل بني آم مــرنّ على الســــــفاد
لقد أسمعت لو ناديت حـــــــــيّاً ولكن لا حياة لمن تـــــــنا
ولو نـــــار نفخت بها أضـــــاءت ولكن أنت تنفخ فـــــي رمـــــاد

لقد كثف الشاعر صوره الشعرية في هذه الابيات, وهي تبدو واضحة العيان في البيت الثالث في قوله (وكنتم أعبداً اولاد غيل بني آم) وهو يشبه الذين غدروا بالعبيد لما كانو عليه من إذلال وإهانة, وهي صور شعرية اتصفت بالكمال وقد توالت عليها صور شعرية فرعية متراكمة أخرى حيث شبههم بأولاد أمة ترضع ولدها على حبل وبعد أرتوائه يعتل ويبرك ، وفي صورة اخرى تبلورت جذورها بالافكار ، وتجسدت أبعاد معانيها بالقيم لنفوس قد اصابها الصدأ فأنكسرت لعدم أمتثالها لأمر المعروف ، وتمسكها بالقيم النبيلة ، لذا يتوجه بالنصح والارشاد ، دعوة لتصحيح الخطأ للسير على جادة الطريق والانصياع لأمر الواقع خوفاً من الوقوع في مهاوي الردى و الذل والانكسار النفسي .

ويزداد تعبير الشعراء عن انكسارهم الذي يطرأ نتيجة ظروف خارجة عن إرادة الطموح ولاسيما هؤلاء الذين يطمحون الى المعالي وبلوغ المجد ولكن ظروف الحرب وقسوتها قد تحول دون تحقيق المأرب أو الغاية بسبب خيانة أو غدر ، وعدم تقدير موقف ، وكثرة التمادي على الآخرين من دون حق ، أو لسلوك صبياني منفرد من دون دراسة ، لعدم أخذهم نصيحة أو تنفيذهم لوصية كونها ((خلاصة تجارب الشخصية ، ومنها تورث الحكمة في اختيار الاشياء))[١٩] لتصحيح كل مسار خاطئ ؛ لذا اكتوت نفوسهم بنيران الغربة في صراع نفسي مع الذات بسبب خيبة الأمل من دون تحقيق المبتغى المنشود الذي يصبون اليه ، ولعل هذا التشخيص الدقيق لدى شعراء الجاهلية ، يحمل نظرية الاصلاح الانساني التي تفضي التعامل بالخلق الرفيع والادب العالي وسيلة من وسائل النقد الاجتماعي من اجل التقويم واصلاح المشكلات الاجتماعية [٢٠] في المجتمع .

لذا تتعالى صيحات الشعراء بعد انجلاء الحرب وحسم المعركة لتدلي قرائحهم مدحاً او قدحاً ، فخراً او رثاءً ، دعوة منهم لتشخيص العيوب ، وكشف الهنات املاً لتصحيح الخطأ، وتعديل المسار الحربي ، وهي بصمات رائدة ، وجادة الى خلق مجتمع مثالي يتغنى بدروس القيم من شجاعة ووفاء ، وحماية الجار ، وإغاثه الملهوف ؛ لذا تنكروا لكل هزيمة لأنها اساس الانكسار ، وتطايروا من الغدر لانه لم يكن من شيمهم . وكان لكل قبيلة كيانها الخاص ، ودستورها المستقل ، فهي اشبه بوطن مصغر تدافع عن حياضها ، وتثأر لقتلاها ، ولا ترضى الاعتداء من القبائل الاخرى طالما لم يكن بينهما اعتداء مسبق او خلاف يذكر .

وهذا ما كابده الحارث بن حلزة اليشكري وذاق مرارته لتدخل بني تغلب في شؤون قبيلته ، لذا ينفي انتمائه اليهم ,معلناً براءته منهم لأنهم كانوا السبب في اثارة الفتن بين القبائل الاخرى ، معيراً اياهم بعدم قدرتهم على ادراك الثأر من المنذر الثالث وحاشيته ، طالباً منهم كف الأذى عنه وعن قومه لكي لاتختلط الاوراق ولا يكونوا سبباً في قضية لم تكن بالحسبان ، وقال لهم : ((أن سلوككم نحو قومي فيه تعنت ظاهر، ورمى بالتهم من دون حق ، ووضع الامور في غير موضعها الصحيح)) [٢١] مذكراً بني تغلب بكثرة جناياتهم ، وما تحمله من عبء ثقيل هي قاصمة للظهر ، فهي في نظره شبيهة بالاحمال التي تعلق على ظهر بعير ، وهي صورة بيانية بديعة تعطي أبعاداً من المعاني ، يتخللها بعد من التفكير بضرورة مراجعة النفوس وكبح جماحها بالوقار بدلاً من التمادي والتعدي ، ثم يسترسل بالحديث عن بني تغلب وانكساراتهم المتتالية امام خصمهم أنه دليل خيبتهم وفشلهم ، عدم قدرتهم على أطفاء ديون الثأر من جهة ، وعدم استرجاعهم للغنائم من جهة أخرى ، حتى يسدل خاتمة معاناته بتذكيرهم بالغلاق وغزوته الأخيرة على بني تغلب التي من خلالها أجبرهم على التقهقر، وهم يجرون اذيال الخيبة والعار في انكسار نفسي جديد يضاف الى سلسلة انكسارات متتالية أخرى ، إذ يقول :[٢٢]

ليس منّـــا المضرّبون ولاقـيس ولا جـــندل ولا الـــــــحدّاء
أم جنايا بني عتيق فمن يـــغدر فإنا من حربـــــــــــهم براء
أم علينا جـــرّى العباط كما نيط بجور المحمل الأعبـــــــــاء
وثمانون من تمـــيم بأيـــــــد بهم رمـــــاح صدورهن القضاء
تركوهـــــم ملحّـــــبين وآبوا بنهاب يصمّ منها الحـــــــداء
أم علينا جـــرّى حنـيفة أومـا جمعت مـن محارب غبـــــراء
أم علينا جـــرّى قضـــاعة أم ليس علينا فيما جنوا أنـــــداءُ
ثم جـاؤوا يسترجعون فلـــم تر جع لهم شامة ولازهـــــــراء
لم يحلّوا بـــــني رزاح بـبرقا ء نطاع لهم عليهم دعـــــــاء
ثم فـــاؤوا منهم بقاصمة الظهر ولا يبرد الغليل المـــــــــاء
ثم خيـــــــل من بعد ذاك مع الـــــغلّاق لا رأفة ولاابقـــاء

وكما هو معروف إنّ العرب تربوا على حسن الخلق وآداب الحرب من الترفع عن الدنايا وانتهاك لحرمات ، فهم لا يخوضون غمار الحرب الا دفاعاً عن الشرف والعرض والأرض ، أو طلباً لإدراك ثأر لأن الثأر عندهم ((بمثابة محاولة لرأب الصدع الذي أصاب تلك النفوس بسبب الحادث)) [٢٣] الذي كان سبباً لانهيارها وانكسارها لما يحمله من أثر نفسي حاد ، وبخلاف ذلك يرونه ضياعاً لقيم اجتماعية تتعلق بشخصية الفارس وبالقوم الذين ينتمي اليهم ؛ لذا يزكي نفسه ويحصنها من كل شاردة أو واردة قد تضعه أو تجعله ((في حالة حرب واضطراب يقال عنه إنّه فقد توازنه أو أن نسقه قد تصدع أوحصل شرخ في جداره)) [٢٤] فيدخل في دائرة الغربة في صراع مع النفس التي تهوى المعالي فإذا هي قد أصابها ظمأ الطموح ، وكسر نفسيتها خيبة الأمل ؛ لذا تتعالى صيحات الشاعر الحليم لإنقاذ ذاته ، وصحبه من مغبة الوقوع في مثل هذا الامر ، وكأنه يأخذ نقلة لمشكلته لتنبئه بحدث في ظل فضاء واسع من فكر قد تشبع بالقيم فباتت مرسومة في مخيلة الذاكرة لا يمكن أن يزعزعها النسيان ، ومن خلال الفخر يثني شعراء الجاهلية على أنفسهم لمواقفهم الانسانية ، لعدم تجاوزهم على ممتلكات الناس واحتوائهم الغنائم أثناء الإغارة على الخصم ، وهذا إنْ دلّ على شيء إنما يدل على حسن النوايا المبيتة وصدقها، فلم يكن المغزى من إغارتهم إلا لتسديد الديون وأغلاق باب الثأر من دون الحاق الضرر بالآخرين بخسائر مادية لأن الأهداف الدافعة أهداف معنوية لامادية .

وهذا ما جسده الوقّاد بن المنذر وهو المتحدث عن نفسه كما يصورها شخصاً كريم الاخلاق ، وبطلاً شهماً ذائع الصيت ، يترفع عن الدنايا((ولم تكن الديّة هي المطلوب وإنما القتل بالقتل هو السبيل المرجو)) [٢٥] والغاية المنشودة ، وله ما يؤيد هذا الاعتداد الشخصي الذي يحمله شهود عيان من أرض المعركة : قبيلتا (عوذ وبهثنة) اللتان أثنتا عليه بالفروسية والنزاهة فلم تكن لديه أطماع مادية بقدر ما هو شفاء غليل بإدراك ثأر ، وحين يحتدم الصراع ، وتشتبك الرماح ، وتختلط الخيل ، تستجيب أرادته أن يثأر برمحه اللين المثقف، عند منقطع الطرفاء ولكن على الرغم من بلوغ الغاية وتحقيق الطموح ، تبقى حسرة النفس منكسرة لانكسار الرمح وخيانته ، لذا ذَمّ من الرمح ضعفه ، وقلة ثباته، فلولا انكساره لجعل لقتيله نظيرين من أشراف القوم وزعمائهم الذين يتبجحون بقتل الملوك وكبار القوم ؛ لذا يطلق عنان زفرته بانكسار نفسي لعدم تحقيق الأماني مثل ما يريد ، إذ يقول [٢٦]

لقد علمت عوذ وبهثنة أنني بوادي حمام لاأحاول مغنما
ولكن اصحابي الذين لقيتهم تعادوا سراعًا واتّقوا بأبن أزنما
فركبتُ فيه إذ عرفت مكانه بمنقطع الطّرفاء لدنا مقوّما
ولو أن رمحي لم يخنّي انكساره جعلت له صالحي القوم توءَما

وقد تجسدت الفكره نفسها عند عمروبن معد يكرب الزبيدي , وهو يتمنطق بحديث الذات بصوت خفي تارة ، وظاهر تارة اخرى , متصفحاً بتاريخه الذي يفتخر به من خلال تكراره الضمير المتصل في صدر البيت (علمتُ – أنني) مرتين معززاً كلامه بـ (إنّ) التوكيدية ليؤكد حقيقة وجود ذلك الضمير الحي في الميدان الحربي ، ولكن الذي شدّ فكره ، ولفت نظره, فحرك مشاعره ، وألهب عاطفته ، هو ذلك الكائن السحري المرأة [٢٧]التي وجد بجمالها إثارة ، وبصوتها اندفاع ، وبذكرها نخوة ، وهي افكار وقائية تحوطية ، تحمل نظرة بعيدة ، الخوف من انهيار الذات، وانكسارها النفسي، ثم يستطرد الحديث عن أفعال قومه وبطولاتهم ، ومعززاً قوله بالصور الشعرية عن طريق الحس ، فتأتي الصورة البصرية (اللونية) في مقدمتها لتعلن صبرهم وجلدهم ، وطول ثباتهم من خلال تلونهم بألوان النمر ، وصورة لمسية لملازمتهم الحديد ، حتى يسدل خاتمة صوره الشعرية بصورة بصرية أخرى بقوله (وبدت محاسنها التي تخفى) تحمل جانباً من جوانب الإثارة ، والشدّ نحو قضية هامة ومهمة هي تراص الصفوف ، والانقضاض على كبش القوم سعياً منه لحسم الموقف ، ولا يبالي بما يقدمه من خسائر، ولا ينكسر على ما يفقده من أحباب على الرغم من معزته لهم وتأثره عليهم ، لذا تولى تكفينهم وتجهيزهم بنفسه ، وهو يشكو غربته بفؤادً منكسر بعيداً عن أنظار الناس بعد أنْ أصبح وحيداً منفرداً بالسيادة كالسيف الذي لا يجمع إثنين في غمد واحد ، إذ يقول : [٢٨]

وعلمتُ أنّي يوم ذا ك منازل كعباً ونهدا
قوم إذا لبسوا الحديـ ـد تنمرو خلقاً وقدّا
كلّ أمرئ يجري إلى يوم الهياج بما إستعدا
لما رأيتُ نساءنا يفحصن بالمعزاء شدّا
وبدت لميس كأنها بدر السماء إذا تبدّى
وبدت محاسنها التي تخفى وكان الأمر جدا

نازلتُ كبشهم ولهم أرَ من نزال الكبش بُدّا
هم ينذرون دمي وأنـ ـدر إن لقيتُ بأن أشدّا
كم من اخٍ صالحٍ بوّأتهُ بيديّ لحدا
ما إن جزعتٌ ولا هلعـ ـتُ ولا يردّ بكايَ زَندا
ألبسته أثوابه وخُلقت يوم خُلقتُ جَلدا
أغني غناءَ الذاهبيـ ـن أُعدّ للأعداء عَدّا
ذهب الذين أحبهم وبقيت مثلَ السيف فردا

إن ظاهرة الانكسار لم تكن حصراً بالضعفاء بل تشمل الأقوياء وإن كانوا أشدّاء العزيمة ولا سيما إذا كانت ظروفهم تخرج عن إرادة الذات وقد أصبحوا عاجزين عن معالجتها ، بخلاف الضعفاء الذين كتب قدرهم ان يكونوا موسومين بالانكسار منذ بداية حياتهم ، وخير من مثل معاناته ، وكابد الحسرة بجرس يدق في بوتقة الحزن المفرط ، هو المهلهل بن ربيعة التغلبي حين علل الذات بنغمة صاخبة ، وموسيقى مؤثرة لكي لا تنقطع سلسلة ذكريات كليب عن مخيلة ذاكرته ؛ لذا ظلّت دواخل الذات تبوح فيضاً من الحزن المكبوت تحت ظل((مأساة فردية هي الآسى لمقتل أخ سيد والثأر له))[٢٩] لأنه فارس مغوار ، وبطل صنديد لا ينكسر ، بوصفه حامي القبيلة والمدافع عنها ، ولكن شاء القدر لأيادي أن تغدر ، ولرماح أن تتمادى ،, إذن فلا بد للنفوس من أن تنتفض ، وللعيون من أن تجري مآقيها ، وللمشاعر أن تتحرك ، وللعواطف أن تجيش على أثر سهام انطلقت من رماة تخصها بصلة ، وتربطها بدم ، جساس الغدور ، لذا تكالبت الأحزان على من كان له حضور في قومه وأهله ، في ظل حياة تسودها الألفة والسعادة ؛ لذا يرثي أندثار ذاته التي تنتظر قدوم المنية ولكن في الوقت نفسه يتحدى القدرية ويقاومها حتى و إنْ استسلم لها في الوهلة الأولى يائساً من خلاصه [٣٠] وهذا ماجعل حياته تعج بالغربة بروح تسكنها العبرات ، وبصدر قد ضاق بألم الجراح ، فهو كاسف أللون ، لا يطيق المزاح ، وهو الذي كان يرجل رأسه لايبالي بالحياة شرها وصلاحها لم يعد أمامه اليوم الّا خيار واحد إدراك الثأر حتى يريح ذاته فيقطع دابر أحزانه وانكساره النفسي بدم كفء لمهلهل ، إذ يقول:[٣١]

إنّ فـــي الصّدر من كليب شجونا هـاجساتٍ نكأن منه الـــجراحا
أنكرتني حليلتي إذ رأتـــني كـــاسف اللون لا أطيق الـــمزاحا
ولقد كنتُ إذ أُرجّـــل رأسي مـــا أبالي الإفساد والإصـــلاحا
ليس من عاش في الحياة شقّـــياً كـــاسف اللّون هائماً مُـــلتاحـــا
مثل من عـــاش في رخاء وروْحٍ ثم خلّى حياته فاســـتراحا
ياخليليّ ناديـــا لي كليـــباً واعلماه أنيّ ملاق كـفاحـــا
ياخليليّ ناديـــا لي كليـــباً سيّداً عند قومه نـفاحـــا
ياخليليّ ناديـــا لي كليـــباً ماجدَ الجُود والندّى مرتاحـــا
ياخليليّ ناديـــا لي كلـيـــباً قبل أنْ تُبصرَ العيون الصّباحـــا
لم يَرَ الناس مثلنا يوم سرْنـــا نَسْلبُ الملك غـــدوةً ورواحـــا
وضَربنا بمرهـفات عـــتاق تترك الهدم فوقـــهنّ صباحـا
ترك الدار ضيفنا وتـــولى عذر الله ضيـــفنا يوم راحـــا
جـاور الخوف بعد طول نعـــيم وجفا اللّون فانـــثنى ثم طـــاحا
ذهب الدهر بالسمـــاحة منّا يالذا الدهر كيف راض الجماحـــا
ويح أمي وويـــحها لقتيل من بني تغلب وويحاً وواحـــا
أسلموا نفسه وراحـــوا جميعاً لـــم أطق في الذين راحوا رواحا
ياقتيلاً نماه فـــرعٌ كريـــم فقده قد اشاب مني المـــساحا
كيف أسلو عـــن البكاء وقومي قد تفانوا, فكيف أرجو الفلاحـــا

ومن يتمعن النظر في الأبيات الشعرية يجد أن شدةالأحزان التي يعاني منها المهلهل قد وصلت ذروتها ؛ وذلك بسبب قسوة الموقف او الحدث ، وفداحة المصاب ؛ لذا نجده منكسراً ، منهاراً ، فاقد الاعصاب ، لم يهدأ له بال ، ولن تطفيء نار غضبه الّا سيوف الثأر ؛ لذا تتعالى صرخة الشاعر بصوت النداء الموجه نحو القريب الأقرب : الأهل والخلان ، ومن هم على قيد الحياة ، فهو نداء غير مجدٍ ، لكونه لا يقوده الى بر الحقيقة ، وما يتبعه من أمر غير ملزم التنفيذ لأنه طلب تعجيزي لا يمكن تحقيقه ، وفي الحقيقة هي حالة لاشعورية ، وسلوك لا أرادي صادر من رجل أهتز كيانه ، واختلت نفسيته لما وقع فيها من انكسارنفسي ، وارتباك عقلي نابع من حالة التوتر ، وفقدان السيطرة التي قد تنجم عن عدم

تحقيق غاية الفرد لإرضاء ذاته [٣٢] ، وهذا ما لمسناه في البيت السابع والثامن والتاسع والعاشر ، من خلال تكراره الشطر الأول (ياخليليّ ناديا لي كليباً) وتبرز سمة التكرار اللفظي كقوة تعزيزية لإرادة غير موفقة وإن كانت معززة بأدوات لغوية هادفة لتحقيق غايته وعلى الرغم مما حملته لغة الشاعر من خيال طافح وسلوك غير راكز ولكنها في حقيقة الامر ((ترجمان القلوب ، وحديث النفس ، والاداة المعبرة عما تنطوي عليه الضمائر من فكرة أو خاطرة)) [٣٣] راشدة ومثمرة تفضي به الى ما ينبغي او يطمح ، وهي بطولة جاءت على أثر ردود فعل ، هادفة الى طمس معالم الانكسار النفسي بثأر التكافؤ لكونه في نظرهم غطاء لكل عيب ، وقطع لدابر كل عار .

ولم يكن الانكسار النفسي متقوقعاً في نطاق ضيق ضمن اطار الحرب بل كان له حضور أيضاً من الجوانب الاخرى ، وعلى وجه الخصوص الجانب الاقتصادي لأنه يعدّ العمود الفقري للحياة ، وواجهة من واجهات الانسان وبقائه. وبما أن الحرب صراع دموي من أجل إثبات وجود الإنسان لما يحمله من حقوق مشروعة كحق الدفاع عن النفس والعرض والشرف ، والكرامة والعزة, فهناك سعي جاد من جوانب اخرى الى تعزيز هذه القيم وتثبيتها ، ولا يمكن تحقيق هذا الّا بسلاح الفكر الإقتصادي الذي يحمل رؤية ايجابية صحيحة ، هي مواجهة الظروف، ومقاومتها لكي لا تنكسر نفوس الناس ، وتنثلم هيبتهم ، وتهان كرامتهم وعزتهم ، وذلك لعدم وجود موازنة اقتصادية او شعور وإحساس بمن عاشوا وكابدوا معاناة الفقر والجوع ؛ لذا نجد هؤلاء الفقراء ينكسرون نفسياً على الرغم من حملهم القيم الرفيعة التي لا يروق معها الانكسار ولا يحلو ، لما لهؤلاء من مواقف حربية مشرفة في سوح الوغى حيث الشجاعة والإقدام .

والمتأمل في أخبار الصعاليك وأشعارهم يجد أنهم يشعرون شعوراً أليماً بفقرهم ، ويحسون احساساً مرّاً بهوان منزلتهم الاجتماعية وعدم تقدير المجتمع لهم ، لا لأنهم عاجزون ولكن لما وقع عليهم من جور ، وحرمان من مجتمعهم لذا وقفوا عند مفترق الطرق : أما أن يقبلوا الحياة الذليلة وأما أن يشقوا طريقهم بالقوة من أجل حياة حرة كريمة ، يفرضون أنفسهم وينتزعون لقمة العيش من حرمهم منها [٣٤] في ظروف بيئية صعبة اتصفت بالقحط والجدب .

وتعمقت هذه الأفكار ، واختمرت عند عروة بن الورد كقائد ميداني في حرب استهدفت دفع الأذى والجوع عن الفقراء – حتى أطلق عليه عروة الصعاليك – ، وكآمر ، وممول للتموين لطائفة انتمت لأفكاره على أثر معاناة صدرت من أبناء جلدته ، أقارب ؛ لذا فضل الموت على الحياة إذا كان فيه خطوات هادفة لتحسين وضع معاشي يرفل بالكرامة والعزة تحت ظل مفردة الغنى لكونه((قيمة اجتماعية مهمة ، به تحقق الذات وجودها أو تلغيه)) [٣٥] ؛ وهذا ما جعله يستنكر عذل عاذلته ، ولا يستجيب لرأيها لأنه سلك صراطاً ضن أنه مستقيم ، وفيه خير ، ولكن الذي يؤلمه ويكسر نفسيته ، ويجرح مشاعره سؤال لم يكن في موقعه لا بل يتعارض ورغباته ، لذا يصرخ بصوته لكي يسترعي الانتباه ليختتم ما في دواخله بمختصر القول : إن في الأرض منأى ، فهو غير مكبل بقيودها ، فقرر الرحيل طالما لم يجد خيراً من ساكنيها ، أقاربه ، لذا تدفعه ذاته للتعرض للمخاطر من أجل ذويه وصحبه لكي يدفع عنهم ذل الانكسار تحت ظل معاناة القهر التي سببها الفقر والجوع ، إذ يقول : [٣٦]

إذا المرء لم يبعث سواماً ولم يرح عليه ولم تعطف عليه أقاربه
فللموت خير للفتى من حياته فقيراً ومن مولى تدب عقاربه
وسائلة أين الرحيل ؟ وسائل ومن يسأل الصعلوك : أين مذاهبه
مذاهبه إن الفجاج عـــريضة إذا ضن عنه بالفعال أقاربه
فلا أترك الاخوان ماعشت للردى كما أنّه لا يترك الماء شاربه

لقد تبلورت أفكار الشاعر ، وآرتسمت بناءً على فلسفته الخاصة تجاه الموت والحياة ، والوجود والعدم ، الغنى والفقر ، والكرامة والإذلال, السائل والمجيب ، يكون ولا يكون ، وهي مفردات متداخلة فيما بينها ، متضاربة في معانيها ، متباينة في الفاظها ، ولعل هذا التداخل المتقارب المتباين ماهو الا تركيبة طبيعية خاضعة لأرادة ربانية ، وهذا ما يقرّه الايمان والمبدأ والمنطق ، والمال هو صمام الامان ومحرك لجانب من هذه المتضادات ، فالمال حياة ، وغنى ، ومجيب ، وكرامة ، وهذه حقيقة أدركها الجاهلي معتقداً أن المال هو سيد الموقف ، ومحرك للحياة وفيه تكمن الهيبة والذلة [٣٧] ؛ لذا يدعو عروة بن الورد شريكة حياته (زوجه) الكف عن العذل واللوم طالما أنّه صاحب القرار ، الذي يخوض غمار الغارة ، ويدعوها الى ضرورة التريث وعدم اعتراض مسيرته ، وهو في مطاف الركب ، وحجته في ذلك أنه رأى ملأ عينيه ، كيف كانت معاملة الفقير؟ وهو وسط الجمع في مجلس

، فهو في نظرهم شرير ، يقصيه مجتمعه ، وتزدريه حليلته ، وينهره الصغير ، أما الغني فهو صاحب الحظوة والمكانة والاجلال ، لذا نجد عروة يتحوط من أن يصاب بالانكسار أمام الناس ، إذ يدعو من يهمه من الذين يعذلونه بعدم التدخل في شؤونه ,وعدم عذله لمنعه من القيام بالمغامرة ، وسلوك المخاطر من أجل العيش بكرامة من دون رجاء الناس والآخرين ، إذ يقول: (٣٨)

دعيني للغنى أسعى فإني رأيت الناس شرّهم الفقير
وأبعدهم وأهونهم عليهم وإن أمسى له حسب وخير
ويقصيه النديّ وتزدريه حليلته وينهره الصغير
ويلفى ذو الغنى وله جلال يكاد فؤاد صاحبه يطير
قليل ذنبه والذنب جم ولكن للغنى ربّ غفور

لقد بات يقيناً لدى الشعراء الذين عاشوا معاناة الفقر وكابدوا ألمه أنَّ الفقر مذلة وضياع في انكسار نفسي قد تصل ذروته حد الهلاك ؛ لذا بحثوا عن سبل لإنقاذ أنفسهم من هذه الأزمات الاقتصادية التي كدرت صفو حياتهم ، وحطمت نفوسهم وألحقت بهم الاضرار ؛ فكان امتشاق السيوف وسيلة لانتزاع لقمة العيش بقوة سواعدهم لكي يستبدلوا واقعهم المأساوي بواقع جديد يرفع من شأنهم ، ويعزز من مكانتهم .

ويرسم لنا أحيحة بن الجُلاح صورة حقيقية لحياة بائسة يسودها الذل والانكسار بسبب الفقر والجوع ، فجاءت قصيدته اللامية دعوة للناس إلى عدم الانكسار أمام الناس , وأن لا ينغروا بمن تربطهم بهم صلة من ابن عم ولا عم ولا خال ولا سيما الذين لم يكونوا بالمستوى المطلوب ، ولا عند حسن الظن ، الذين يلتمس فيهم حب الذات بنوايا مضمرة تتعلق بمصالح شخصية ومنافع ذاتية ، وعدم الشعور بالطرف الآخر، فبذلك يتولد صراع ذاتي دائم بين العواطف نفسها وبين العواطف والعقل ولكن تبقى إرادة الذات القوية هي صاحبة القرار لمسك زمام الامور وضبط النفس حتى تخضع العاطفة الجامحة لرؤية العقل (٣٩) ولقد آمن أحيحة وتيقن أن الكريم على الإخوان هو صاحب الجاه والمال الذي لايبخل على إخوانه بالمال ، إذ يقول: (٤٠)

استغنِ أو مت ولا يغررك ذو نشب من ابن عم ولا عم ولا خال
يلوون مالهم من حق أقربهم وعن عشيرتهم والحق للوالي
إنّي أقيم على الزوراء أعمرها إن الكريم على الإخوان ذو المال
كل النداء إذا ناديت يخذلني إلا ندائـــي اذا ناديت : يامالي

إنَّ الغرض من إباحة الشعراء عن معاناتهم هو من أجل ((الابانة عما يجيش من معنى ، ويضطرب في النفس من هاجس ، ويعتلج في القلب من خاطر؛ ليتجاوب الناس في العواطف وليتعاون البشر في الحياة)) [٤١] ولاسيما الذين تكدرت حياتهم بسبب الظروف التي أمليت عليهم ، وكسرت نفوسهم ، ومنها العوز والفاقة والجوع بسبب غياب المال ؛ لذا عبروا عن رغبتهم في الغنى – من دون ان يكون لديهم جشع في مادة ولا سعار في طلب هذا الحطام الفاني – من أجل توظيفه في مشروع إنساني نبيل يرفع المستوى المعاشي لإناس ذاقوا قسوة الفقر وذله.

وينفرد من بين هؤلاء الشعراء مالك بن حُريم بالقول بحقيقة أهمية المال التي أصبحت راسخة في نفسه لكي يزرع الثقة في نفوس قومه ومجتمعه بعد تجربة مرّة أظهرت حقائق مهمة منها أهمية المال وفضله ، وأنه نسق الحياة يعود بالنفع على صاحبه فيجعله محموداًعند الناس على الرّغم من مساوئه ، وأنَّ قلة المال مفسدة لحال المقلّ ، وجاهه ، ونفسه ، حتى يبريه بريَ السوط ، وهي صورة بيانية رسمت أبعاد معانيها من خلال التشبيه الذي أعطى صورة حية لحال الفقير المنكسر الذي يلزم السكوت في نادي الحي ؛ لكونه لا يستطيع الترقي الى مدارج الفضل والإفضال ، إذ يقول : [٤٢]

أنبيت والأيام ذات تجارب وتبدي لك الأيام ما لست تعلم
بأن ثراء المال ينفع ربّه ويثني عليه الحمد وهو مذمم
وإن قليل المال للمرء مفسد يحزّ كما حزّ القطيع المحرم
يرى درجات المجد لا يستطيعها ويقعد وسط القوم لا يتكلم

وعلى الرغم من معاناة الشعراء من الفقر والجوع ومن الانكسار النفسي والانطواء الذاتي ، وما أسفرعن تلك المعاناة من نتائج حيث الخيبة وفقدان الأمل والإحساس بالضياع ، بقيت خيوط الأمل مرسومة في نفوس الشعراء يحوكون بها سلال آمالهم بالغنى والمال ، ولم يكن ذلك من باب الطمع والجشع بقدر ما هو رغبة في توظيف ثروتهم في مشاريع إنسانية تأتي باب مساعدة الجار ؛ لأنه جزء لا يتجزأ منهم لا يبخلون عليه بالمال بل يبذلون الغالي والنفيس من أجل تخفيف معاناته ، والالتفاف حوله لمسح كربته التي صنعها الفقر .

ويبدو أن غيرة عروة بن الورد تدفعه للتعبير عن هذا الشعور النبيل الطافح بالإحساس تجاه الذين هم بجواره ، فهو يعاهد الذات إذا رزق بالخيرات فلا بد لجاره من نصيب ، فالمال ماله ، والبيت بيته ؛ لذا فهو لا ينكسر إذا افتقر ، ولن يتضرع لأحد مهما ألمت به الظروف من الانتكاسات المالية أو الأزمات الاقتصادية, إذ يقول : (٤٣)

فإذا غنيت فإن جاري نيله من نائلي وميسّري معهود
وإذا افتقرت فلن أرى متخشعاً لأخي غنى معروفه مكدود

ونجد في بعض الأحيان عروة بن الورد ينصت لعواذله ولاسيما المقربين منه زوجه (تماضر) ويمنحها فرصة التشاور وإبداء الرأي ؛ لأنهما قاسم مشترك لتبادل الآراء ، وطرح الأفكار لكون النفع والضرر يصيب الطرفين ، فهي تنظر له كما تنظر لنفسها ولا ترتضي له الّا أن يكون بالمستوى الرفيع ، علو المكانة ، المجد والسؤود؛ لذا تناصره وتآزره ، وكأنها تحمل روح الخصوصية الفردية ، ومحاولة النزوح والخروج على أنماط القهر هذه ؛ لذلك تسعى الى جهد مكثف لكسر انماط هذا القهر، والانكسار النفسي لتشتت الأحبة والأقارب بسبب نضوب المال، فبغيابه قطيعة ، وضعف علاقة ، وقلة تواصل ، وهذا ما لا يتوافق مع المرأة التي استهوت توحيد الصفوف ، ولم الشمل من أحبة وأقارب ، لذا تلتمس من عروة بصيغة الامر المجازي (خاطر) ؛لأنها تعلم أنّ نفسيته تهوى الغنى لأنها وجدتْ فيه مهابة وتجلة على العكس من الفقر الذي لم يجنِ إلا المذلة والأنكسار أذ يقول: (٤٤)

قالت تماضر إذ رأت مالي خوى وجفا الأقارب فالفؤاد قريح
مالي رأيتك في النديّ منكساً وصباً كأنك في النديّ نطيح
خاطر بنفسك كي تصيب غنيمةً إنّ القعود مع العيال قبيح
المال فيــه مهابة وتجِلة والفقر فيه مذلة وفضوح

ففي الأبيات الشعرية أعلاه وجدنا أن الشاعر قد كثف صوره بمفردات الفعل الماضي (قالت- جفا- رأيتْ- رأيتك) كدافع نفسي يرسم من خلاله صورة الانكسار الواضح على شكله ولونه وعن طريق الحس ، وهي احدى الوسائل التي يملكها الشاعر للتصوير؛ ((لأنّه دائماً يحاول أن يقترب باللغة من روحها البدائية ، وكلما قربت اللغة من وضعها البدائي كلما كانت تصويرية)) (٤٥) فهي أذنْ صور حيّة ، بُنيتْ على جعجعة الصوت من خلال القول (قالتْ- خاطرْ) كصورة سمعية ، وصورة أخرى بصرية من خلال النظر الذي جاء على أثر تحديق العيون (رأتْ- رِأيتك) وهكذا يعرض الشاعر انكساره النفسي من جانب اقتصادي حسب ما رأتهُ عينيه وحسب ما جرى بالمنكسرين قبله كشاهد عيان ثم يعرض مايثيره من خلال سماعه عن المنكسرين وأحوالهم.

وتبقى مسألة الفقر ومعاناته عالقة في أذهان الشعراء ، تحت ديمومة تفكير عميق منقطع النظير لما لها من مردودات سلبية ، وعواقب وخيمة , فكيف بهم ، وقد توالت عليهم نوائب الدهر ، وتقلبات الاقدار ، من فقر وتهميش ، ونزوح قسري لعدم رضوخهم لأوامر قبائلهم وعدم أمتثالهم للعادات والتقاليد ، ولم يكن تمردهم هذا الا تحقيقاً لوجودهم ، وإثباتاً لذواتهم التي عانت الفقر والعوز والحاجة (٤٦) وهي ردود فعل طبيعية لأناس اكتوت نفوسهم بنيران الظلم الى درجة قد طفح الكيل بهم و ((علا السيل الزبى)) (٤٧) حيث سُلِبت إرادتهم, وكسرت نفوسهم في مجتمع تربطهم به صلة , وتعشق بهم انتماء ولكن للضرورة أحكام التي أسفرت نتائجها الرحيل والمغادرة.

وهذا ما حصل للشنفرى الازدي الذي اصرّ على الرحيل والمغادرة مشياً على الأقدام أو على ظهور الخيل قاصداً ذلك الفضاء الواسع المفتوح ليجد فيه حريته و كرامته وعزته بعيداً عن الظلم والانكسار النفسي الذي كان نتيجة ضغوط اجتماعية من أبناء جلدته ،إذ يقول: (٤٨)

أقيموا بنـــــي أُميّ صدور مطيكم فإنّي الى قوم سواكم لأميلُ
فقد حــمّت الحاجات , والليل مُقمر وشدّت لطيات مطايا وأرحل
وفي الارض منأى للكريم عن الأذى وفيها لمن خاف القلى متعزل
ولي دونكم أهلون سيد عملّس وأرقط زهلولُ وعرفاء جيألُ
هم الرّهط لا مستودع السرّ شائع لديهم ولا الجاني, بما جرّ يخذلُ

وعلى الرغم من تباريح الحزن الشديد التي خيمت على نفوس الشعراء تحت ظل مأساة لم يكن لها نظير ، أسفرت نتائجها عن القلق النفسي ، وعدم الاستقرار في ظلّ غربة قاتلة الّا أنّ هذه النفوس الأبية التي تكدرت فكابرت بروح التصدي والصمود ،وبعزيمة دفعت بهم الى كسر الانكسار الذي أصابهم على أثر الخلع والطرد فضلاً عن أمور اخرى لم تكن بالحسبان ،لذا عاهدوا الذات بعدم الرضوخ والاستسلام لتلك الظروف التي كان مبعثها أزمة أقتصادية أو شحة في المال .

ويطالعنا أبو خراش الهذلي ليدلي لنا حقيقة ذاته في صورة شعرية تتوجَتْ بالإباء والأنفة ورفض الضيم ((مصوراً نفسه واستعلاءها على الحرمان والهوان)) [٤٩] وهي تحمل روح الكبرياء بلغة توكيدية مؤثرة من خلال أستخدامه لمؤكدين في صدر البيت (إنّي – لأثوي) سلاحه الوحيد المتوج بالأنفة والعزة لكي يتجاوز محنته ، وهو مرفوع الرأس ، سالماً مغنماً ، بعيداً عن القيل والقال والطعن والتجريح , ولا يكتفي بهذا القدر بل يستعين بالنفي في عجز البيت نفسه (لم يدنس– ولا جرمي) ؛ ليطهر نفسه الابية من كل دنس أو جرم ، ويزكيها من كل شائبة ؛ لذا استهوى حياة العّز ، وفي الوقت نفسه غير راغب في حياة يسودها الذل والهوان الذي يفضي به الى الانكسار النفسي , إذ يقول: [٥٠]

إني لأثوي الجوع حتى يملني فيذهب لم يدنس ثيابي ولا جرمي
واغتبق الماء القراح فأنتهي إذا الزاد أمسى للمزلجّ ذا طعم
مخافة أنْ أحيا برغم وذلة وللموت خير من حياة علـــــى رغم

وحين تشتد المحن ، ويبهم المستقبل ، تتأزم نفوس الفقراء ، وتجني ثمار التأزم البؤس في موقف يسوده الانكسار والانهيار النفسي لأمور لم تكن بالحسبان ، ولاسيما إذا وقعوا في شباك معترك الحياة ، وفي مثل هذه الحال لا يجدي الندم ؛ لأنها خرجت عن أرادتهم ، وعلى الرغم من قسوة الظرف ذلك ، لم ينحنوا منكسرين من دون صمود أو تصدي بسلاح عتاده التفكير ، وسياسته التريث ، بحثاً عن سبل تقودهم الى برّ الأمان وهي خلاصهم من أزمة اقتصادية حادة تحت ظل احتمالية الموقف في أن يكون فيها الفقير أو قد لا يكون ؛ لذا نجدهم من باب التحوط في حالة تقشف اقتصادي يفضي بهم الى التدبير ، وعدم التبذير خوفاً من سهام الدهر أن ترمي بهم في مهاوي الردى وذل الانكسار .

ويصور لنا الشنفرى الأزدي جانباً من انكساراته للظروف الاقتصادية التي ألمت به ، والتي دفعته الى الأحساس بالشعور تجاه الآخرين ، وعلى وجه الخصوص من وقع عليه العبء الثقيل جراء مسؤليته كولي أمر (أم عيال) – ويقصد به تأبّط شرّا –؛ لذا يصف حاله وهو يحسن التدبير في توزيع الطعام عليهم في إحدى غزواته تحوطاً من نفاده وهي خطة مدروسة ، وسياسة ناجحة لم تكن مبنية على بخل بقدر ما هي خشية من الجوع الذي تسفر نتائجه عن الانكسار [٥١] ؛ لذا نجده يرسم صورة انكساره على من يهمه أمرمم الذين يعدهم أهله وعياله , متمنياً أنْ لا يراهم ، وهو في موقف منكسر، إذ يقول: [٥٢]

وأمُّ عيالٍ قــد شهدت تَــقُوتُهُمْ إذا أدمَتْهُمْ أو أحْتَرَتْ وأقلتِ
وما إنْ بها ضِنٌّ بما في وعائها ولكنها من خِيفة الجوع أبقتِ
تخاف علينا الهزلَ إن هي اكثرت ونحن هُزال أيّ آل تألت

ويبدو لنا أن الترابط وثيق مابين الجانبين الاجتماعي والاقتصادي لما لهما من توافق و انسجام تحت ظل قوة تأثيرية فاعلة وبشكل مباشر ؛ وذلك لوجود وجه الشبه بينهما وهو الانكسار النفسي ؛ لأن الانسان المنكسر فاقد الجاه والمال , ومن خلال هذا الصراع المادي والمعنوي تبرز شخصية الفرد و إرادته في مقاومته للانكسار.

ومن أهم الصور المتكررة التي تكشف عن أصول شعائرية في تكرارها : صورة البصر التي أسلفنا الاشارة إليها عند الحديث عن الفقير وحالة انكساره أمام الظروف القاهرة التي ألمت به في أزمة لم تكن بالحسبان ، ولعل خير من مثل هذه الظاهرة الأعشى الكبير (ميمون قيس) ، وهو يستطرد الحديث عن نفسه بعد أن عاش حالة الإحباط والأنكسار النفسي الذي جعل منه شخصاً محطم الشخصية بعد ما كان عزيزاً في قومه ، وزمام الامور بيده ، وتجري لصالحه ، ولكن بسبب تغير الأزمان ، وتبدل الأحوال من حال الى حال ، لذا نجده لا يرضي بما أصابه من ضعف وهوان ، وفقر و إذلال ؛ لذا جادت قريحته بحقيقة ما كابده وعاناه ، عندما رأى ملأ عينيه زماناً كالحاً ، لا يهب غير البرد والجوع ، قد ذلت فيه رؤوس الناس حتى صاروا أذنابا ؛ لذا وقع أختياره على إياس بن قبيصة ، خير فتى في الناس ، حاضرهم وغائبهم ، ثم وصف شعوره تجاهه وقد احسن ضيافته ، حين رآه على ما هو عليه من شدة وضنك ، رث الثياب وقد اختلط أمره ، وفسد حاله ، ... فقال: [٥٣]

لما رأيت زماناً كالحاً شبما قد صار فيه رؤوس الناس أذنابــا
يممت خير فتى في الناس كلهم الشاهدين به أعني ومن غابا
لما رآني إياس في مرجمة رث الشّوار قليل المال منشابا
أثوى ثواءً كــريم ثم متعني يوم العروبة أذ ودعّت أصحابــا

نجد في الأبيات الشعرية أعلاه نباهة الشاعر ، ويقظته ، وحسن تصوره ، وتحسبه لملمات الزمان وكوارث الدهر ، بحكمة وتعقل ، وحسن دراية بجذور غُرِست بالذكاء والدهاء والفطنة لوقاية النفس من الوقوع في محنة الفقر ومهانة الانكسار ؛ لذا جاءت لغة الشاعر تروي حكايته بصيغة الماضي ، آملاً في أن يستقر حاضره بماضيه حين قال: (رأيتُ- قد صار- يممتُ- رآني- أثوي- ودعتُ) وهي مفردات لأفعال ماضية من خلالها نفهم صورة لشخصية قد غلب عليها طابع الحزن بعد أن عُرِفت بالجاه والتقدير ؛ لذا دارت في مخيلته صورة للصديق الذي هو أهل للضيافة والمؤهل لأداء الواجب الانساني ، والجدير بقضاء الحاجة ؛ فجاءت لغة الحق تنطق بالشكر والثناء لمن أمروا بالمعروف ، وهي ترسم صورها الإنسانية بشكل لافت للنظر ؛ لأنه رأى ملء عينيه حال الفقراء المنكسرين ، وبؤسهم في نفسه .

وكما هو مُتَيَقَن ومعروف أنَّ الانكسار النفسي لدى الشعراء لم يكن مقتصراً على الجوانب الحربية والاقتصادية بل كان للجانب الاجتماعي حضور أيضاً ولاسيما إذا تعرضت مشاعرهم للتجريح ، وعواطفهم للأثارة فضلاً عن الجور والحيف ، والاعتداء السافر بلا مبرر ، مما قادهم للتعبير عما في دواخلهم كرد فعل انساني ، ولابد لهذا الفعل من دافع يخضع لأوامر ، وإيعازات عقلية ، ولكن تكمن صلاحية العقل بالمحافظة على توازن الأفعال والسلوكيات الفردية ، بصورة مؤثرة وفاعلة ضمن إطار المواقف والأحداث الاجتماعية , وفي حالة اختلافهم على أسس المفاضلة فإن العقل يتدخل في تبرير ذلك مبيناً بواعث الاستقرار التي تساعد على بقاء الجوهر(٥٤) بوصفه الأساس والمرتكز الذي تبنى عليه القيم الاجتماعية من رفض للظلم والضيم ، وكلّ ما يعكر الأجواء ، ويسبب الأذى الذي يفضي الى الانكسار من دون أن يكون للجانب الآخر سبب يذكر ؛ لذا نجد معظم الشعراء لا يؤمنون بهذه السلوكية ، ولا يشجعون على الظلم والتعسف ، بل ينتقدون أصحابه ولا يتعاملون معهم .

وخير من جسد هذه الأفكار ، وتنكر لمثل هذه الظواهر طرفة بن العبد إذ نجده ((يتعجب من سلوك الظالمين والمعتدين والوشاة والمفسدين)) [٥٥] في شكوى مرّة تدوي صدى بصوت شجي مؤثر في شعور يملؤه التردد والحيرة والتوتر النفسي المقترن بالانكسار ؛ لأن عاطفته تلوح بالعبرة المكبوتة التي من خلالها يحاول تفريغ انفعاله المحبوس الناتج عن الصراع في دواخل الذات حتى يصل الى مستوى لايمكن احتماله ؛ لذا يحزّ في نفسه أن يكون له ابن عم يسيء اليه ويعتدي عليه من دون ذنب أو تقصير [٥٦] وعلى الرغم مما هو فيه فهو ملتزم بقيمه ، متمسك بثوابته ، وحريص على أبناء جلدته ، أهله وأحبابه ، وتزداد شدة غضبه وانفعاله على أثر ظروف ضاغطة عنيفة تفتقر الى الوجدان ، والضمير الحي ، من أقرب المقربين ؛ لذا يسدل خاتمة معاناته بالإفصاح عن الأذى النفسي الذي أصابه ، أذ يقول: [٥٧]

فما لي أراني وابن عمّي مالكاً متى أدنُ منهُ ينأ عني ويبعد
يلوم وما أدري علام يلومني كما لامني في الحيّ قرط بن أعبد
وأيأسني من كل خير طلبته كأنا وضعناه على رمس ملحد
على غير ذنبٍ قلته غير أنني نشدت فلم أغفل حمولة معبد
وقرّبت بالقربى وجدّك إنني متى يكُ أمر للنكيثة أشهد
وإن أدعَ للجلّى أكن من حماتها وإن يأتك الاعداء بالجهد أجهد
وأن يقذفوا بالقذع عرضك أسقهم بشرب حياض الموت قبل التهدد
بلا حدثٍ أحدثتهُ وكمُحْدثٍ هجائي وقذفي بالشكاة ومُطْردي
فلو كان مولاي أمرءاً هو غيره لفرجَّ كرْبي أو لأنظرني غدي
ولكن مولاي امرؤ هو خانقي على الشكر والتسآل او أنا مفتدي
وظلم ذوي القربى أشد مضاضةً على المرء من وقع الحُسام المهندِ

وفي بعض الأحيان يكون مبعث الانكسار النفسي عند شعراء الجاهلية على أثر أزمة نفسية حادة تتعلق بحياتهم الخاصة ، والتي تنحصر ضمن اطار الحب وهوى الغرام ولا سيما الذين هم في مقتبل العمر ، مرحلة الشباب ، ومن أجل إثبات هذه الحقيقة نجد أن أفئدة شعراء الحب استهوت الإبانة عما يجيش في دواخلهم من انكسارات وما يضطرب في نفوسهم من هواجس ، وما يعتلج في مخيلاتهم من خواطر ، أملاً في استمالة عواطف من يحبونهم ، ويتبادلون معهم الودّ ، بحسن معاشرة وطيب لقاء ، وبمشاعر تغنت بهوى الحب ،

وهكذا كانت لغة التخاطب شفافة مع المرأة في حوار مفتوح غير مخبيء بوصفها ((هي الواحة الخضراء في صحراء الحياة ، والمرأة قصيدة الدهر ، وأغرودة الأبد)) [٥٨] ؛ لذا يسردون القصص الغرامية عن أنفسهم التي أكتوت بنيران الهوى ؛ فجاءت قصائدهم بخطاب شعري تتضمن معانيه العتب الموجه الى من ارتكب جناية الصدود والهجران ، وهي رسالة إنسانية تتضمن معانيها تعزية الذات المنكسرة أثر النأي وتجافي الأحبة ، ولكن على الرغم من معاناة الشعراء ومكابدتهم للبعد والفراق نجدهم يمسكون أنفسهم متجبرين ، صابرين من دون أن يكونوا في حال انكسار .

وقد جسد تميم بن أبي مقبل هذه الفكرة ورسم فيها أبعاد معانيها في لوحة شعرية تكللت بالصبر والثبات وعدم إفشاء سرّ من أحب ، وفي الوقت نفسه أظهر حاله في وضع غير المنكسر ، وهي التفاتة فنية رادعة لكل من توجه بالسؤال التجسسي إليه ؛ خوفاً من الوشاة الشامتين ، فهو لا يُظهِر لهم أثر انكساره من خلال استخدامه لاسم الاستفهام المتضمن معنى النفي في قوله (وكيف ولا نار لدهماءَ أوقدت) المقترن بالنفي الظاهر في قوله (ولا كلبٌ لدهماءَ نابح) مبرهناً قوله بأدلة دامغة توحي بنزوح وأرتحال من أحب ، وهي نوع من خططه الوقائية للمحافظة على أسرار حبه لكي لا يتدخل الوشاة في شأنه الخاص ، إذ يقول: [٥٩]

إذا الناس قالوا: كيف أنتَ؟ وقد بدا ضمير الذي بي قُلت للناس صالحُ
ليرضى صديقٌ أو ليبلغ كاشحاً وما كل من سلّفته الودّ ناصحُ
إذا قيل من دهماء ؟ خبّرت أنها من الجنّ لم يقدح لها الزّند قادحُ
وكيف ولانار لدهماءَ أوقدتْ قريباً ولا كلبٌ لدهماءَ نابحُ
وإنّي ليلحاني على أن أحبّها رجال تعزيهم قلوبٌ صحائحُ

ولم يكن أعزّ على الأنسان في حياته من شيء الّا شبابه ؛ لأنه وجد فيه القوة المقترنة بالقدرة على إدراك الذات من دون أعتمادها على الغير، وبه تكتمل الحياة رونقاً وسعادة من خلال إشباع الرغبات ، وارتياح النفوس التي استذوقت الجمال والهيبة ، والمكانة والرفعة ، والطعم واللذة ، والقدرة على مواجهة المحن والصعاب ، ففي الشباب أمل وطموح بإرادة لاتنكسر ، وكبرياء لايثلم ، وبخلاف ذلك تنكسر نفوس الرجال ولا يهدأ لهم بال لحلول شيخوختهم وإطلالة كُبْرَتهم ، بعد أن ودعوا ذلك الماضي التليد الذي انطوت صفحاته في سجل حافل بالمسرّة والسعادة ، واستقبلوا حاضرهم بحياة يسودها الكدر من

عجز وقهر، وأحباط وإحساس بقرب المنية ونهاية العمر ؛ لذا يدخل المسن في دائرة الصراع والانكسار النفسي لما جنته الشيخوخه من تحديد لطاقاته ، وفقدان لقيم إنسانية من حيث الاحترام والتقدير ؛ لذا كانوا يشعرون بالعزلة عن المجتمع لزوال شبابهم ، فالشباب والشيخوخة مرحلتان من العمر لابد أن يمرّ بها الإنسان – وقد يكون في عداد المعمرين – وهاتان المرحلتان متناقضتان في الشكل والمضمون ؛ لذا يطلعنا كعب بن رداة النخعي بقوله الذي يهدف من خلاله الى التعويض النفسي ، وهو يعرض مأساته ، والظروف التي أحاطت به ، وهي آلام حياتية اتسمت بالمرارة ؛ لترسم له صورة حزينة في نفس السامع لعلّه يستطيع استعطاف مشاعر الآخرين تجاه نفسية قد أصابها الانكسار والتصدع من جانبين : الأول لدخوله مرحلة جديدة من العمر ، لم يرَ فيها الّا الكدر والعجز وسوء الحال ، والثاني: انكساره لضياع كثير من القيم ، وهي رسالة إنسانية تضمنت أبعادها شكوى عارمة يعلن فيها سخطه وعدم رضاه لأناس قد ملّوه ، وأبغضوا رؤيته ، وحجموا سلوكه وتصرفه ، وأخبروه أنّه لا يحل كلامه ، وزيادة على ذلك لم يكن لديه من معين إلّا يديه والعصا، فهو منحني الظهر ، منكسر النفسية ؛ لذا يبحث عن منفذ لفك أزمته ، وغربته القاتلة ؛ فتأتي مفردة (ليت) في البيت الثالث مرتين لتعطي أبعاد صورة حزنه ، وثقل معاناته بصيغة التمني ؛ لأنه وجد في موته علاجاً شافياً ، وستراً لحاله وحفاظاً لشخصه ، إذ يقول : [٦٠]

لقد ملني الأدنى وأبغض رؤيتي وأنبـــأنـــــي الاّ يحـــل كلامـــــي
على الراحتين مرة وعلى العصا أنوء ثلاثـــاً بـــعدهـــنَّ قيـــامـــــي
فياليتني قد سخت في الارض قامة وليت طعامي كان فيه حـــــــمامي

وبعد أن أمعنا النظر في نصوص شعر الانكسار ، وأسهبنا في تحليل نصوصه ، وجدناه متناثراً في الموضوعات الشعرية كافة ؛ لذا اكتفينا بعينات من الشعر بما يقتضي وضرورة البحث ، وللإستزادة من المعلومات في هذا الشأن ، ينظر شعر دريد بن الصمة [٦١] وبشر بن أبي خازم[٦٢] والنابغة الذبياني [٦٣] وامريء القيس[٦٤] وعروة بن الورد[٦٥] ولقيط بن زرارة [٦٦] والخنساء [٦٧] وعامر بن الطفيل [٦٨] وعفيرة بنت عفان الجديسية [٦٩] وسليمى بنت المهلهل [٧٠] وزهراء الكلابية [٧١] .

هكذا كانت الظروف الحربية والاقتصادية والاجتماعية التي عاش مرارتها الشعراء من البواعث الرئيسة لبروز هذه الظاهرة وشيوعها عندهم ، وذلك لكثرة غزواتهم وغاراتهم ، وحروبهم الأهلية وما اسفرته نتائجها من أنكسارات متتالية على أثر أندحار أو هزيمة ، فضلاً عن الانكسارات الناتجة عن الظرف الأقتصادي القاهر ، من فقر وجوع ، وعوز وحاجة ، وما تركتها من أثر سلبي على نفوسهم لعدم حظوتهم بالمكانة والرفعة ، والأحترام والتقدير ، أو أشباعهم لرغباتهم بسبب غياب المال ، وهذا مايتعارض وأفكار الشعراء الذين يرمون الحظوة بوجودهم الذاتي وسط مجتمع يهوى المعالي من دون أن يكونوا في حال المنكسرين

الهوامش :

(١) معجم علم النفس والطب النفسي ٢ / ٦٦ .

(٢) تناقضاتإدراك الذات وعلاقتهابكل من القلق الاجتماعي والاكتئاب – رياضنايل العاسمي – مجلةجامعة دمشق – المجلد٢٨ – العددالثالث – السنة ٢٠١٢م ص ٢٧ .

(٣) موسوعة الطب النفسي /٤٠٤ .

(٤) معجم علم النفس /٩٦ . والفترة الانكسارية المطلقة : هي فترة ((تعقب الإثارة وتكون الخلية العصبية خلالها غير قابلة لمزيد من الإثارة)) . معجم علم النفس/ ٩٦ .

(٥) البطولة في الشعر العربي قبل الإسلام : ٢٤٦.

(٦) ديوانه: ٤٧.

(٧) المصدر نفسه :٤٦

(٨) ديوانه: ٤٥. الردة: الرجوع (لم ترجع بيننا عطفة في اليوم أو غد)

(٩) ينظر: أيام العرب وأثرها في الشعر الجاهلي :٦٦

(١٠) صورة الجاهلية، الجاهلية بين التطور الأدبي والحقيقة التاريخية :٢٦٩

(١١) ينظر : الشريف الرضي ، دراسات في ذاكرة الألفية : ١٢٥

(١٢) ينظر: تاريخ علم النفس: ١٠٣

(١٣) ينظر:صورة الجاهلية ، والجاهلية بين التطور الأدبي والحقيقة التاريخية:٣١٧

(١٤) ديوانه : ٢٨ – ٣٠

(١٥) ينظر:الأمل واليأس في الشعر الجاهلي:٢٤

(١٦) ينظر:علم النفس المعاصر: ١٢٩

(١٧) ينظر: الإنسان والزمان في الشعر الجاهلي:١٠٤

(١٨) ديوانه: ٩٨-٩٩(بنو أعلى وأنعم)قبيلتان في مراد . ودق العير الى الماء : يقال للمستجدي الذي يطلب السلام بعد الإباء .المزاد: الظرف الذي يحمل الماء (القربة) الغيل:المرأة التي ترضع ولدها على حبل . آم: جمع أمة: هي المملوكة خلاف الحرة السفاد: نزو الذكر على الأنثى.

(١٩) في تاريخ الادب الجاهلي : ٣٢٧

(٢٠) ينظر : نظريات معاصرة في علم الاجتماع : ٤١

(٢١) في تاريخ الأدب الجاهلي : ٣٢٦ .

(٢٢) ديوانه : ٣٧ – ٣٩ . جرىّ:جناية . العباد :قوم في النصارى , كانوا ينزلون جهة الحيرة . نيط: علّق. الجوز : الوسط . ملحبين:مقطعين بالسيوف . الغبراء :الارض, السنة المجدبة . الغلاق : رجل من بني تميم أغار بهجائن عمرو بن هند على قبلية تغلب فقتل بعضهم ، يذكرهم الشاعر بهذا الانكسار.

(٢٣)الإنسان والزمان في الشعر الجاهلي:٩٥

(٢٤)نظريات معاصرة في علم الاجتماع : ٧٦

(٢٥) صورة الجاهلية ، الجاهلية بين التطور الأدبي والحقيقة التاريخية : ٣٥٦

(٢٦) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي : ٣٩٩/٢-٤٠٠

(٢٧) ينظر : دراسات معاصرة في الشعر الجاهلي : ٥٤

(٢٨) ديوانه: ٦٤-٦٦. المعزاء : الأرض الحزنة ذات الحجارة.

(٢٩) البنى المولدة في الشعر الجاهلي : ١٢٠

(٣٠) ينظر: فلسفة الشعر الجاهلي : ٩٨

(٣١) المهلهل بن ربيعة التغلبي , حياته وشعره . نافع منجل شاهين ١٩٨٦م ، رسالة ماجستير ، كلية الاداب ، الجامعة المستنصرية : ٢٢٣ – ٢٢٥

(٣٢) ينظر: علم النفس المعاصر:١٣٣

(٣٣)الحياة الادبية في عصر صدر الاسلام :٩

(٣٤) ينظر: الفروسية في العصر الجاهلي : ٢١

(٣٥) دراسات في الشعر الجاهلي برؤيا جديدة : ٣٧

(٣٦)ديوانه : ٢٩

(٣٧) ينظر دراسات في الشعر الجاهلي برؤيا جديدة : ٨١

(٣٨) ديوانه : ٩١-٩٢

(٣٩) ينظر: مبادئ علم النفس العام : ١٧٠

(٤٠) ديوانه : ٧٨ – ٧٩

(٤١) بحوث في الأدب الجاهلي: ١٦

(٤٢) شرح ديوان الحماسة (للمرزوقي) : ٨٢٢/٣

(٤٣) ديوانه: ٤٨

(٤٤) ديوانه: ٤٣.خوى: ذهب. النديِّ: المجلس. الوصب : المريض

(٤٥)الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري :٢٦

(٤٦)ينظر: دراسات في الشعر العربي القديم : ١٦٥

(٤٧) كتاب معاني الشعر : ٤٦

(٤٨) ديوانه: ٧١ – ٧٤

(٤٩) دراسات في الشعر العربي القديم :١٣٥

(٥٠) ديوان الهذليين ، القسم الثاني : ١٢٧ – ١٢٨

(٥١) ينظر : في تاريخ الأدب الجاهلي :٤٣

(٥٢) شعره : ١٠٧ ضن: بخل . أي آل تألت: أي سياسة ساست .

(٥٣) ديوانه: ٣٦٥. كالح: عابس. الشبم: البردان الجائع. يممت: قصدت. المرجمة: القبر. الشوار: الهيئة الحسنة واللباس . منشار: مختلط

(٥٤) ينظر: نظريات معاصرة في علم الاجتماع : ٧٦

(٥٥) في تاريخ الأدب الجاهلي : ٢٩٩

(٥٦)ينظر: المصدر نفسه والصفحة نفسها

(٥٧) ديوانه: ٥٤ – ٥٩

(٥٨) أدب النساء في الجاهلية والإسلام: ٩

(٥٩) ديوانه: ٢٤ .ناصح : صادق في ودّه . يلحاني : يلومني

(٦٠) المعمرون والوصايا : ٩٣

(٦١) ديوانه:٦٣

(٦٢) ديوانه: ٢٦ – ٢٧

(٦٣) ديوانه:٢١٣

(٦٤) ديوانه: ٩٧ – ٩٨

(٦٥) ديوانه:٩٨

(٦٦)الشعر والشعراء: ٢/٧٢٠

(٦٧) ديوانها : ٢٤٠–٢٤١

(٦٨)ديوانه : ٦١ – ٦٢ (٦٦)

(٦٩) شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام: ٢٩–٣٠

(٧٠)المصدر نفسه: ٤٠

(٧١) المصدر نفسه: ٩٠

المصادر والمراجع

- أدب النساء في الجاهلية والإسلام ، تأليف د.محمد بدر معبدي ، القسم الأول ، النشر، ملتزم الطبع والنشر ، مكتبة الآداب ، المطبعة النموذجية ، سكة الشابوري بالحلمية الجديدة ،(د ـــــــــــ ط) ، ١٩٨٣ م .
- الأمل واليأس، د. كريم حسن اللامي ،دار الشؤون الثقافية العامة ، ط١ ، بغداد،٢٠٠٨ م.
- الإنسان والزمان في الشعر الجاهلي ، د.حسني عبد الجليل يوسف ، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة (د – ط) ١٩٨٨ م .
- أيام العرب وأثرها في الشعر الجاهلي ، منذر الجبوري ، دار الشؤون الثقافية العامة ، وزارة الثقافة العامة ، ط٢ ، بغداد ، ١٩٨٦ م .
- بحوث في الأدب الجاهلي ، تأليف إبراهيم علي أبو الخشب والدكتور أحمد عبد المنعم النبهي، الأستاذيين بكلية الشريعة بالأزهر ، مطبعة البيان العربي ، ط١ ، ١٩٦١ م .
- البطولة في الشعر العربي قبل الإسلام ، د.مؤيد اليوزبكي ، سلسلة رسائل جامعية ، طبع في مطابع دار الشؤون الثقافية العامة ، وزارة الثقافة ، ط١ ، بغداد ، ٢٠٠٨ م .
- البنى المولدة في الشعر الجاهلي ، (الموسوعة الصغيرة) تأليف د.كمال أبو ديب ، رقم (٣٠٠) ، دار الشؤون الثقافية العامة ، آفاق عربية ، وزارة الثقافة والإعلام ، ط١، بغداد ، ١٩٨٨ م .
- تاريخ علم النفس ، تاليف موريس روكلن ، ترجمة د.علي زيعور ، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع ، ط٣ ، بيروت ، ١٩٧٨ م .
- تناقضات إدراك الذات وعلاقتها بكل من القلق الاجتماعي والاكتئاب – رياض نايل العاسمي – مجلة جامعة دمشق – المجلد٢٨ – العددالثالث – السنة ٢٠١٢م .
- الحياة الأدبية في عصر صدر الإسلام ، د.محمد عبد المنعم خفاجي ، دار الكتب اللبناني ، ط٢ ، بيروت ، ١٩٨٠ م .
- دراسات في الشعر الجاهلي برؤيا جديدة ، أ.د.توفيق إبراهيم صالح ، دار الحامد للنشر والتوزيع ، ط١ ، الأردن ، ٢٠١٤ م .
- دراسات في الشعر القديم ،تأليف أ.د.علي حسن جاسم ،تموز للطباعة والنشر والتوزيع ، ط١ ، بغداد ، ٢٠١١ م .
- دراسات معاصرة في الشعر الجاهلي ، أ.د.توفيق إبراهيم صالح ،المكتب الجامعي الحديث ، دار الكتب والوثائق القومية ، ط١ ، ٢٠١٣ م .
- ديوان ابن مقبل ، تحقيق عبد الرحمن المصطاوي ، دار المعارف للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، ٢٠٠٦ م .
- ديوان أحيحة بن الجلاح الأوسي الجاهلي ، دراسة ، جمع ،تحقيق د.حسن محمد باجودة ، من مطبوعات نادي الطائف الادبي ، (د – ط) (د – ت) .

- ديوان الأعشى الكبير (ميمون قيس) شرح وتعليق د.محمد حسين ، المطبعة النموذجية ، مكتبة الآداب بالجمايز (ت – د – ط) ١٩٥٠ م .
- ديوان امريء القيس ، تحقيق محمد ابو الفضل إبراهيم ،ذخائر العرب (٤) دار المعارف ، ط٤ ،القاهرة ، ١٩٨٤ م.
- ديوان بشر بن أبي خازم ، عني بتحقيقه د.عزة حسن ، منشورات وزارة الثقافة ، ط٢ ، دمشق ، ١٩٧٢ م .
- ديون الحارث بن حلزه اليشكري، جمعه وحققه وشرحه ،د.اميل بديع يعقوب ،الناشر دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، (د – ط) (د – ت) .
- ديوان دريد بن الصمة الجشمي ، قدم له د.شاكر الفحام ،جمع وتحقيق وشرح محمد خيري البقاعي ، دار قتيبة ، دمشق ، ١٩٨١ م .
- ديوان طرفة بن العبد ، الشاعر الجاهلي الشاب ، تحقيق ودراسة لشعره وشخصيته ، د.علي الجندي ،دار الفكر العربي ،مؤسسة دا ر الكتاب الحديث للطبع والنشر والتوزيع ،(د – ط) (د – ت) .
- ديوان عامر بن طفيل ، بشرح أبي بكر محمد بن القاسم الأنباري ، قراءة علي أبي العباس ثعلب، تحقيق د.محمود عبدالله الجادر، و د.عبد الرزاق خليفة محمود الدليمي ، وزارة الثقافة ، دار الشؤون الثقافية العامة ، ط١ ، بغداد ، ٢٠٠١ م .
- ديوان عروة بن الورد ، شرح ابن السكيت ،يعقوب بن اسحاق (ت ٢٤٤ هـــ) حققه وأشرف على طبعه ووضع فهارسه عبد المعين الملوحي ،وزارة الثقافة والارشاد القومي ،مطبوعات مديرية احياء التراث القديم (د – ط) ١٩٦٦ م .
- ديوان النابغة الذبياني ،بتمامه ، صنعة ،ابن السكيت ، الإمام ابو يوسف يعقوب بن اسحاق (ت ٢٤٤ هـــ) تحقيق د.شكري فيصل ،دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، (د –ط) (د – ت) .
- ديوان الهذليين ، القسم الثاني ،الجمهورية العربية المتحدة ،الثقافة والارشاد ،نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ، الناشر الدار القومية للطباعة والنشر ،المكتبة العربية ، (د – ط) القاهرة ، ١٩٦٥ م .
- شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام ،جمعه ورتب حواشيه ،بشير يموت ،المكتبة الاهلية في بيروت ،المطبعة الوطنية ، ط١ ، ١٩٣٤ م .
- الشريف الرضي ، دراسات في ذاكرة الألفية ، دار الكتب والوثائق العراقية ،بغداد ، آفاق عربية ، ١٩٨٥ م .
- شعر الشنفرى الأزدي لابي فيد مؤرج بن عمرو السدوسي (ت ١٩٥ هـــ) تحقيق وتذييل أ.د.علي ناصر غالب ، راجعه د.عبد العزيز بن ناصر المانع ،دار الحامد للنشر والتوزيع ، الأردن ، عمان ، ط١ ، ٢٠١١ م .
- شعر عمرو بن معد يكرب الزبيدي ، جمعه وحققه مطاع الطرابيشي ، مطبوعات مجمع اللغة العربية ، دمشق (د – ط) ١٩٧٤ م .
- الشعر والشعراء لابن قتيبة ، تحقيق احمد محمد شاكر، دار المعارف بمصر ، (د – ط) ١٩٦٦ م .

- صورة الجاهلية ، والجاهلية بين التطور الأدبي والحقيقة التاريخية ،د.محمد رزوق ، دار جرير للنشر والتوزيع ،ط١ ،الاردن ، عمان ، ٢٠١٢ م .
- الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري ، دراسة في أصولها وتطورها، دار الأندلس ، للطباعة والنشر ، د. علي البطل ، ط٢ ، ١٩٨١ م .
- علم النفس المعاصر ، تاليف د.حلمي المليحي ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، ط ٨ ، بيروت ، ٢٠٠٠ م .
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، ج١٠ ، لابن حجر العسقلاني ،دار الاسلام ،دار الفيحاء ، ط٣ ،٢٠٠٠ م .
- الفروسية في العصر الجاهلي ، سيد حنفي ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، ١٩٦٦ م .
- فلسفة الشعر الجاهلي ، دراسة تحليلية في حركية الوعي الشعري العربي ، د. هلال الجهاد ، دار الثقافة والنشر ، ط١ ، ٢٠٠١ م .
- في تاريخ الأدب الجاهلي ، د.علي الجندي ،دار الفكر العربي ، مؤسسة دار الكتب الحديث (د – ط) القاهرة ، ١٩٧٧ م .
- كتاب معاني الشعر ، حققه عزالدين التنوخي لابي عثمان سعيد بن هارون الأشناندانى برواية ابي بكر محمد بن الحسن بن دريد الازدي ، دمشف ، وزارة الثقافة والسياحة والارشاد القومي، احياء التراث القديم (٢١) ، ١٩٦٩ م .
- مبادىء علم النفس العام ، د.يوسف مراد ،دار المعارف ،ط١ ، مصر ، ١٩٩٨ م .
- معجم علم النفس ،إنكليزي ، فرنسي ،عربي – تأليف د. فاخر عاقل – دار العلم للملايين– الطبعة الأولى – بيروت – ١٩٧١م .
- معجم علم النفس والطب النفسي – تأليف عبدالحميد جابر وكفافي علاءالدين – دار النهضة العربية – القاهرة – ١٩٨٩م .
- المعمرون والوصايا لابي حاتم سهل بن عثمان السجستاني (ت ٢٥٠ هـــ) تحقيق عبد المنعم عامر ، (د – ط) ، منشورات دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٩٦١ م .
- موسوعة الطب النفسي – تأليف عبدالمنعم الحنفي – مكتبة مدبولي – القاهرة – ١٩٩٢م.
- نظريات معاصرة في علم الاجتماع ، أ.د.معن خليل عمر ، دار الشروق للنشر والتوزيع ،الاردن ،عمان ، ط١ ، ١٩٧٧ م .

الرسائل الجامعية :

- المهلهل بن ربيعة التغلبي ، حياته وشعره ، دراسة وتحقيق نافع منجل الراجحي ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، الجامعة المستنصرية ، ١٩٨٦ م .

Abstract

The psychology breaking at the Pre – Islamic Poets

The research dealt with the feeling of psychological breaking because of the economical and warlike factors , besides the factors of old age and senility and what followed from social consequences exaggerate its breaking and disappointments and the poets' attempt to passing that breaking by going into the events of those wars and the factors of perseverance that decrease from the pressure of sadness and weakness , or trying to decrease the effect of the bad economical side and its social reflection through the resistance of its factors and reasons by forced and convincing ways , or trying to reduce the effect of old age about himself throughout the complaint that he spread to vanish his psychological confuse and tension.